

مجتمع شمال إفريقيا القديم من القبيلة إلى المدينة

North African society: From tribalism to urbanization¹عائشة سعدان^{1*}¹ جامعة الوادي (الجزائر)، saadane-aicha@univ-eloued.dz

تاريخ الاستقبال: 2026/10/02؛ تاريخ القبول: 2026/10/13؛ تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص: تتناول هذه الدراسة التركيبة السكانية لشمال إفريقيا القديم، وتنطلق من إشكالية مفادها: كيف انتقل مجتمع المغرب القديم من التنظيم القبلي إلى النظام الحضري، وما أثر الجماعات الوافدة في هذا التحول؟ وتبرز أهمية الموضوع في ربطه بين البنية القبلية الأولى وبواكير التمدن في المنطقة، اعتمادًا على المصادر المصرية والكلاسيكية والدراسات الأثرية. ولمعالجتها اعتمد البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، فرصد أولاً القبائل الليبية الكبرى والصغرى كما صورتها المصادر المصرية، ثم تتبع أخبار القبائل التي ذكرها هيرودوت وغيره من المؤرخين الكلاسيكيين، قبل أن يرسم الخريطة السكانية بعد القرن الخامس ق.م من خلال السكان الأصليين (النوميد والجيتول والمور) والجاليات الأجنبية الشرقية (الفينيقيون والإغريق والسوريون) والغربية (الإيطاليون والإيبيريون والغاليون). وخلصت الدراسة إلى أن الهجرات والتجارة والحروب والتوسع السياسي أسهمت في انصهار القبائل ضمن ممالك منظمة وظهور مراكز حضرية، مهدت لانتقال تدريجي إلى المجتمع الحضري، وتؤكد بذلك كله أن التحول الحضري نتاج تفاعل طويل بين العوامل المحلية والمؤثرات الخارجية.

الكلمات المفتاحية: المغرب القديم؛ القبيلة؛ المدينة؛ النوميد؛ الجاليات الأجنبية.

Abstract: This study examines the demographic composition of ancient North Africa and addresses the following question: how did the society of the ancient Maghreb move from tribal organization to an urban system, and what role did incoming communities play in this transformation? The topic links early tribal structures to the beginnings of urbanization. Using a descriptive-analytical historical method, it first surveys the major and minor Libyan tribes as depicted in Egyptian sources, then follows the tribes recorded by Herodotus and other classical authors, and then maps the population after the fifth century BC, covering indigenous peoples (Numidians, Gaetulians, Moors) and the Eastern (Phoenicians, Greeks, Syrians) and Western (Italians, Iberians, Gauls) foreign communities. The study concludes that migration, trade, war and political expansion fostered the merging of tribes into organized kingdoms and the rise of urban centers, paving the way for a gradual transition to urban society, showing that urbanization resulted from long interaction between local and external factors.

Keywords: Ancient Maghreb; Tribe; City; Numidians; Foreign communities.

I. السكان الأوائل لشمال إفريقيا

يمكن تتبع حضور سكان المغرب القديم في هذه المرحلة المبكرة عبر المصادر المصرية، بحكم الجوار الجغرافي، وهي مصادر تُظهر عداءً متواصلًا بينهم وبين مصر. ويُعدّ أقدم ظهور لهم في لوحة نعمر المؤرخة بنحو 3200 ق.م، أي قبل قيام الأسرة المصرية الأولى. وقد صنّفت الشواهد هذه القبائل إلى كبرى وصغرى (هيروودوت، 2009، ص13)، امتدت مواطنها من غرب النيل حتى المحيط الأطلسي.

1. القبائل الكبرى

التحنو: جماعات ليبية استقرت غرب نهر النيل، ويُرجّح أن هذا هو أصل تسميتها. تُظهرها اللوحات الأثرية ببشرة بيضاء مائلة إلى السمرة، وتصور بلادها كثيفة السكان وغنية بالأشجار، ولا سيما الزيتون كما في لوحة نعمر (العقرب)، ولذلك سُميت أرضهم «أرض أشجار الزيتون». كما تُظهر إحدى النقائش رجالًا منهم وقد علّق أسماؤًا على خصره. وقد دلّت هذه القرائن على أن مواطنهم كانت في برقة وما جاورها (محمد بيومي مهران، 1990، ص ص69-76)، وأنهم على الأرجح أهل زراعة.

ورغم ما لوحظ من تشابه بين التحنو والمصريين، ومن مجاورتهم لأرقى حضارات عصرهم، فقد حافظوا على عاداتهم الليبية الأصلية: ريشة أو ريشتان فوق الرأس، جراب العورة Etui Phallique الذي أطلق عليه الليبيون اسم كرنـت Kmnt، والشعر الطويل إلى منتصف العنق مع الضفائر، واللحي المدببة. وتُبرز لوحة الحصون والغنائم، العائدة إلى فجر التاريخ، سبعة حصون لمدن التحنو على أحد وجهيها، بينما يصوّر وجهها الآخر الأشجار والثمار، وأغلبها من الزيتون الذي عدّه المصريون من أجود الزيوت، وأوردوه في مدوناتهم باسم «حاتت تحنو» أي زيت التحنو (أم الخير العقون، 2021، ص24).

التمحو: قبائل ليبية أصيلة هي الأخرى، غير أن صفاتها الجسمية تباين صفات التحنو؛ فهي شديدة بياض البشرة، شقراء الشعر، زرقاء العينين. وقد وردت في المصادر المصرية زمن الدولة الوسطى، بين 2181 و2020 ق.م، في مقبرة سيتي الأول. وتُصنّف ثقافتهم ثقافة ليبية خالصة لم يشبها تأثير خارجي. وبسبب جفاف الصحراء هاجرت أسر كثيرة منهم نحو مصر طلبًا للتجارة (محمد بيومي مهران، 1990، ص76)، إذ كانت القبائل الليبية تتولى الوساطة في التجارة الداخلية بين مصر والسودان والنيجر (أم الخير العقون، 2021، ص27).

أما لباسهم فعباءة ملونة مزركشة تصل إلى منتصف الساق، تغطي الكتف الأيسر وتترك الآخر مكشوفًا، ويرسمون على أجسادهم وشمًا بهيئة حرف T اللاتيني. وترتدي النساء ثيابًا مشدودة عند الوسط ويحملن أطفالهن في سلال على ظهورهن، في حين يترك الرجال شعرهم إلى منتصف العنق مع ضفيرتين على الصدغين، ويثبتون ريش النعام على رؤوسهم (محمد بيومي مهران، 1990، ص77؛ أم الخير العقون، 2021، ص27).

2. القبائل الصغرى

الليبو: شعب يقيم غرب الحضارة المصرية حتى المحيط الأطلسي، واشتق اسمه من لوبو Lebu أو روبو Rebou (Cauvet 1936, P387). وأقدم ذكر له في المصادر المصرية بالهيروغليفية ر-ب R'BW L'BW ويعود إلى عهد رمسيس الثاني، بين 1290 و1224 ق.م.

ويُستدل من مقبرة سيقي الأول على أن الليبو بيض البشرة، يرتدون ثوباً أبيض ضيقاً مفتوح أحد الجانبين، وتندلى من رؤوسهم ضفيران على الجانبين تعلوهما ريشة أو ريشتان، ويُبقي رجالهم لحية صغيرة وشارباً كاملاً (بيومي مهران، 1990، ص 87).

المشوش: هم الماكسيون Maxyes عند هيرودوت، وقيمون غرب بحيرة تريتون. وهم شعب مستقر مارس الزراعة، غير أن المصدر لا يذكر مادة بناء بيوتهم ولا هيئتها. تميّزوا بالشعر المنسدل والصفائر كأبناء عموماتهم مع اختلاف في موضعها (Hérodote, IV, 191)، وبالريشة فوق الرأس، وببشرة بيضاء. وردت أولى الإشارات المصرية إليهم في نصوص رمسيس الثالث، ومع بداية الأسرة 18 المصرية أخذ المشوش يتجمعون عند حدود مصر الغربية رغبة في الاستقرار، وتحقق لهم ذلك بوسائل منها الانخراط في الجيش جنوداً مرتزقة (بيومي مهران، 1990، ص 82). بل إن أحد أبناء القبيلة ورؤسائها، شيشنق Cheshnok، بلغ قيادة مصر على رأس الأسرة الثانية والعشرين (جيمس هنري بريستد، 1996، ص 357).

II. القبائل بين القرنين الخامس والثالث عشر ق.م على ضوء المصادر

تناولت معظم المصادر (Hérodote, IV. – Strabon, XVII, 3. – Diodore de Sicile, III, 49. – Pline l'Ancien, V, 1-8) القبائل الليبية القديمة وتوزّعها الجغرافي، غير أن أغلبها، إن لم يكن كلها، قدّم معلومات سطحية يصعب الوثوق بها، لأنها قامت على روايات شفوية مسموعة لم يتحقق مدوّنها من صحتها، وهو ما يقرّ به هيرودوت نفسه إذ يعزو ما يورده إلى مدى صدق الليبيين. وقد حدّد هيرودوت جغرافية المغرب القديم بامتدادها من غرب النيل إلى المحيط الأطلسي، وسمّاها ليبيا، وعدّها القارة الرابعة في العالم القديم (Hérodote, IV, 41-42). ثم بيّن أن سكانها أربعة شعوب: اثنان أصليون واثنان وافدان؛ فالأصليون هم الليبيون الذين يقيمون في الشمال، والإثيوبيون في الجنوب، أما الوافدان فهما الفينيقيون والإغريق.

1. **الأدروماخيدي Adymachides:** أول من تحدث عن هذه القبيلة هيرودوت الهاليكارناسي (Hérodote, IV, 168)، فذكر أنها أقرب القبائل جغرافياً إلى مصر، ولذلك تأثرت بحضارتها تأثراً كبيراً حتى تشابهت أغلب عادات المجتمعين، ما عدا لباسها الذي لا يختلف عن لباس سائر الليبيين. وتمتد أراضيها من مصر إلى ميناء يدعى بلونوس Plunos.

2. **الجليجاماي Giligamme (Hérodote, IV, 169):** تلي أراضيها أراضي الأدروماخيدي مباشرة، وينتشر نبات السيلفيوم ابتداءً من بلادها حتى خليج سرت.

3. **الأسبوستاي Asbyste (Hérodote, IV, 170):** يفيد هيرودوت بأن أراضيهم تقع غرب القبيلة السابقة وفي داخل البلاد خلف مدينة قورينا التي تشغل المناطق الساحلية. وعُرف الأسبوستاي بالعربات التي تجرها أربعة خيول وورد اسم هذه القبيلة كذلك عند سترابون (Strabon, XVII, 3).

4. **الأوشيخي Auschise:** يذكر هيرودوت أن أراضيهم تقع في الداخل خلف مدينة قورينا، وتمتد غرباً حتى الشاطئ (Hérodote, IV, 171).

5. **النزامون Nasamons:** يقيمون غرب موطن الأوشيخي، دون أن يبيّن هيرودوت مدى امتداد بلادهم غرباً حتى معبد الأخوين فيلان (Strabon, XVII, 3, 20). ومن عاداتهم ترك قطعانهم قرب البحر صيفاً والتوجه إلى أوجلا Augila لجني التمر من نخيلها الوفير (Hérodote, IV, 172). ويرى أغلب المؤرخين الكلاسيكيين أنهم ظلوا مقيمين في موطنهم حول خليج سرت طوال العصور القديمة.

6. المكاي Maces: جيران التزامون من جهة الغرب، تطل بلادهم على الساحل ويُرجَّح أنها قرب سرت. وتصفهم المصادر بالقوة وكثرة العدد (Diodore De Sicile, III, 49. – Claude Ptolémée, IV, 3, 6. – Pline L'ancien, V, 34. – Polybe, les Histoires, III, 33, 15). ومن أبرز إنجازاتهم التفوق على داريوس وإخراجه مع الإغريق في القرن السادس ق.م (Stéphane Gsell, 1920, P344).

7. الجرامنت Garamantes: سكنوا موطنًا يبعد عشرة أيام غرب أوجلا، وهم قبيلة كثيرة العدد تميّزت بالعربات التي تجرها أربعة خيول يطاردون بها الإثيوبيين (Stéphane Gsell, 1915, P154). ومارسوا الزراعة رغم ملوحة أرضهم، إذ احتالوا بتغطية الملح بطبقات من الرمل قبل الزرع، واستخدموا الثيران ذات القرون الكبيرة (Hérodote, IV, 183)، كما اشتغلوا بتربية الخيول (Strabon, XVII, 2).

وكونت قبائل الجرامنت مملكة خاصة بها عاصمتها جرمة في إقليم فزان، قاومت التوسع الروماني وتحكمت في الطرق التجارية الصحراوية، وظلت حاضرة في مسرح الأحداث التاريخية إلى حين الفتح الإسلامي (هيرودوت، الفقرة 183، الهامش 69، ص 62).

III. الخريطة السكانية ما بعد القرن الخامس قبل الميلاد:

1. السكان الأصليون

كان المغرب القديم، منذ سبعة قرون أو أكثر، ميدانًا مهمًا للأحداث. ويتضح مما سبق أن قبائل وشعوبًا توالى على أرضه، تنحدر لاحقًا من سابقاتها بلا شك؛ فقد رأينا كيف بدأت الجماعات البشرية قليلة العدد في العصور الحجرية، ثم تحولت إلى قبائل صغرى نمت تدريجيًا إلى قبائل كبرى، وظهرت ممالك أولية مثل نوميديا وسنلاظ فيما يلي أن هذه القبائل تحالفت وانصهرت، واختفت أغلب تسمياتها في ممالك منظمة ذات بنية سياسية متماسكة.

يذكر جوستينيان (Justin, XVIII, 6) أن الإفريقي هيارباس Hiarbas، صاحب أقدم مملكة ورد ذكرها في المصادر التي أتاحت تأسيس قرطاج، كان ملك الماكسيتين Maxitains. ويوافقه ديزانج (Désanges Jehan Désanges, 1962, P111) الذي أكد أن للماكسيتين مملكة قريبة جدًا من إقليم قرطاج وأنهم ينتمون إلى قبائل المازيغ Mazikes أما فرجيليوس فينسبه إلى ملك الجيتول وابن الإله أمون من الحورية الليبية جرامنت (فرجيليوس، 4، 200، 2011، ص 208-209)، بينما يرجح فنطر (محمد حسين فنطر، 1999، ص 108) أنه سيد مملكة الماسيل النوميديّة.

أ. النوميدي

ذهب هيرودوت وسترابون وسالوستيوس (Hérodote, IV, 180. – Strabon, II, 5, 33. XVII, 3, 15. – Salluste, XVIII) إلى أن لفظ النوميدي تحريف لكلمة نوماد Nomade، وأنهم اكتسبوا هذه التسمية حين تخلّوا عن الزراعة واتجهوا إلى الرعي. وظهر مصطلح النوميدي خلال القرن الثالث ق.م بوصفه كيانًا سياسيًا ذا سيادة وشعبًا يقطن رقعة جغرافية واسعة تمتد بين قرطاج شرقًا ونهر ملوية غربًا، ثم انقسمت في ظروف غامضة إلى مملكتين (غابرييل كامبس، 2014، ص 129): شرقية هي مملكة قبائل الماسيل Massyles وعاصمتها كيرتا Cirta، وغربية هي مملكة المازاسيل Massaesylii (Jehan Désanges, 1920. P62) وعاصمتها سيقا Siga.

وخلال القرن الثالث ق.م تحدثت المصادر عن مملكة غايا Gaia وعاصمتها دوقا، بوصفها المملكة الشرقية أو الماسيل، دون أن تحدد جغرافيتها ولا معالمها إلا في عهد ابنه ماسينيسا Massinissa الذي وسّع حدودها من وادي ملوية إلى الحدود الغربية لقرطاج (Polybe, XV, 18, 5).

Stéphane Gsell, 1920, P86) كما نهض بها اقتصاديًا حتى غدت نوميديا في عهده الممّون الأول للجيش الإغريقية بالقمح (Tite Live, XXVII, 4, 8. XXIX, 4, 4)، وشكّلت صادرات القمح والزيت المصدر الأول لدخل المملكة.

أما نوميديا الغربية، أي مملكة المازاسيل نسبةً إلى القبائل التي سكنتها (غابرييل كامبس، ب س، ص 187)، فقد امتدت من رأس تريتون شرقًا إلى وادي ملوية غربًا، ومن الجنوب إلى حدود قبائل الجيتول، وهي المنطقة التي تمثل اليوم وسط الجزائر وغربها إلى غاية مداوروش جنوبًا. ووسّع ملكها سيفاكس Syfax رقعة مملكته سنة 205 ق.م باجتياحه مملكة أشقائه الماسيل إلى حدود قرطاج (Strabon, XVII, 3, 9)، فتحقق بذلك توحيد النوميديتين واتخذ سيقا Siga عاصمة لهما (Plin L'Ancien, V, 19)، ثم أضاف إليها بعد التوسع عاصمة ثانية في الشرق هي كيرتا Cirta التي كانت تابعة لمملكة الماسيل (Stéphane Gsell, 1920, P100)، تيسيرًا لإدارة المملكة. غير أن هذه المملكة لم تدم طويلًا، لأنه أقحمها في الصراع القرطاجي الروماني، فآل أمرها إلى حكم ماسينيسا.

وأخذت نوميديا تتراجع تدريجيًا بعد وفاة ماسينيسا سنة 148 ق.م بفعل التدخل الروماني في شؤونها الداخلية وإذكاء الخلاف بين ورثة العرش، وهو خلاف اشتد سنة 118 ق.م عقب وفاة مكيبسا Mecipsa، ودخلت المنطقة في حرب بين روما ويوغرطة (العربي عقون، 2006) بين 111 و105 ق.م، لم تنته إلا بالخيانة، وكان جزاؤها ضمّ أراضي نوميديا إلى موريتانيا إضعافًا لها وتقليصًا لقوتها. ورغم ذلك استعادت قوتها وحافظت على بقائها حتى سنة 48 ق.م، حين ضُمَّت أراضيها كليًا إلى مملكة موريتانيا بعد هزيمة يوبا الأول Juba I الذي انحاز في حرب الأهالي الرومان إلى بومبيوس Pompeius ضد قيصر Julius César (شارل أندري جوليان، 1985، ص 170).

ب. الجيتول

ظهر الجيتول على المسرح التاريخي قبائل قوية شكّلت جزءًا مهمًا من جيش حنبعل في القرن الثاني ق.م أثناء الحرب البونيقية الثانية 218-202 (Strabon, XVII, 2. – Tite-live, XXII, 18, 1) وفي شأن أسلافهم يرجح كامبس (غابرييل كامبس، 2014، ص 292) أنهم يعودون إلى مربي الأبقار الذين صوّرتهم الجداريات الصخرية النيوليتية، وكانوا يتجهون شمالًا مع حلول الربيع لرعي أبقارهم وحيولهم الكثيرة (Strabon, XVII, 2) ثم يعودون في الخريف إلى مزارعهم. فهم يجتازون الأطلس الصحراوي مرتين في السنة، أي أنهم يقضون نصف السنة في شماله والنصف الآخر في جنوبه، توفيقًا بين الرعي والزراعة. ومنهم انحدروا لاحقًا الجمالة (غابرييل كامبس، 2014، ص 293) الذين خاضوا حربًا ضد الوجود البيزنطي في المغرب القديم.

ويذكر بلينوس الكبير أن الجيتول شعب قوي مشبع بروح القتال، يقاتل كل من يعترض طريقه، دائم الترحال (Plin L'ancien, V, 2)، لا تتوقف حركته إلا ليلًا، ولا يمثل لقانون ولا لعادات وهذا ما جعل الإدارة الرومانية تعاني منهم، خاصة باختراقهم الليمس بقطعاتهم ومهاجمتهم الإقطاعيات الزراعية الكبرى، ولم ينته عداؤهم لها حتى تمكنت من تجنيدهم في فرق من جيشها (Stéphane Gsell, 1920, PP724-728)، فاستفادت من قوتهم وضمنت ولاءهم.

وقد كشفت الأبحاث الأثرية عن نقائش عديدة تذكر صيغًا مختلفة لاسم الجيتول، تجاوز عددها 74 نقيشة حسب غاسكو (Gasco Jacques, T82, n°2, 1970, P723-736).

اختلفت المصادر في تصنيف المور، فمنها ما عدّه مصطلحاً جغرافياً ومنها ما رآه مصطلحاً إثنيّاً (Louis Lacrois, Alger, 2008, P135) وأيّاً كان الأمر، فأهل هذه المنطقة من الأجناس الأصلية في شمال إفريقيا، ويمتد عيشهم على الأرض الواقعة من نهر ملوية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً (Polybe, III, 33)، وهو ما يفسّر معنى التسمية موريزيا، أي البلاد الواقعة في أقصى الغرب، اقتباساً من اللغة الفينيقية مع بعض التحريف ماحوريم (العربي عقون، 2008، ص159). ثم رُؤم الاسم لاحقاً بعد أن وطئت روما المنطقة، بإضافة US فتحول إلى ماريـس Maurus

(Tite Live, XXIV, 49, 5. – Stéphane Gsell 1920, P5).

وتفيد المصادر بأن مملكة المور ترجع إلى ما قبل القرن الرابع ق.م (Diodore de Sicile, XIII, 80, 3)، وهي اتحاد لمجموعة من القبائل منها البافار Bavares والبقواط Baquates وحلف القبائل الخمس Quaquegentiani (Jehan Désanges, 1962, PP47, 28, 67) وقد استعان حنون القرطاجي بهذا الكيان السياسي في محاولة قلب نظام الحكم في قرطاج (François Décret et M'hamed Fantar, 1981, P91) أما تاريخها السياسي فقد شهد في القرن الثالث ق.م انحياز ملكها باغا Baga إلى ماسينيسا في الحرب البونيقية الثانية، ثم انحازت بعد نحو قرن إلى الاحتلال الروماني بزعامة بوكوس الأول الذي أعان الرومان على القبض على يوغرطة غدراً مقابل امتيازات أهمها توسيع مملكته على حساب نوميديا. وتوالت بعد ذلك الأحداث التي أتاحت لها التوسع تدريجياً برضا الإدارة الرومانية، إلى أن أخضعتها لحكمها المباشر بمجرد مقتل بطليموس سنة 40م (Camps Gabriel, 1954, PP253-254)، مع الإبقاء على الاسم فقط واستعباد الشعب.

2. الجاليات الأجنبية

أ. العناصر الشرقية

الفينيقيون: من المتفق عليه أن العنصر الفينيقي كان تجارياً بامتياز، ركب البحر وجاب أرجاء العالم القديم، واتخذ لنفسه، بحكم الخبرة المكتسبة من مخالطة الشعوب، محطات في مدن عامرة للراحة والتجارة، وذلك نحو القرن الثاني بعد الألف ق.م (Justin, XVIII, 5. Et – Stéphane Gsell, 1920, P382). ومن أبرز مدنها وأقدمها لكسوس Lixus سنة 1100 ق.م وأوتيكا Utica سنة 1101 ق.م.

وحين قرر الصوريون الاستقرار الدائم في الحوض الغربي، كان ذلك لدوافع اقتصادية ودينية، فضلاً عن تشجيع أبناء عمومتهم الأتيكيين الذين سبقوهم إلى ذلك. وتروي الأسطورة أن ديدون أسست على رقعة صغيرة من الأرض مدينة تقيم فيها مع من رافقها (Stéphane Gsell, 1920, P382)، بموجب معاهدة أبرمتها مع الملك هيارباس حدّد فيها المساحة وثنّ الكراء (Virgile, IV, 205-210) وسميت المدينة الجديدة بلغة وطنها قرت Qart hadasht تمييزاً لها عن المدن الفينيقية التي سبقتها إلى الوجود في هذا الإقليم، واشتهرت باسم قرطاجو Carthago وهو اسم لاتيني محزّف عن الاسم الفينيقي (Stephane Gsell, 1920, P376) ويعود تأسيسها إلى نهاية القرن التاسع ق.م، سنة 814 ق.م، وتميزت علاقة هذا الكيان السياسي الجديد بالأهالي في بادئ الأمر بالود والسلم (محمد محي الدين المشرفي، 1957، ص36). وتشهد مصادر مختلفة بأن الفينيقيين أمة مسالمة لم تتجاوز أهدافها في البداية إنشاء مراكز للمبادلات التجارية (Stephane Gsell, 1920, P380)، غير أنها صارت عدوة مع حلول القرن الخامس ق.م، وأثبتت أنها أمة بارعة في الاحتيال لبلوغ غايتها وتحقيق مصالحها.

ثم أخذت قرطاج تشهد اختلاطاً ولّد عناصر جديدة مزيجاً الدم والثقافة بين الليبي المحلي والفينيقي، هي العنصر البونيقي، وتؤكد ذلك زيجات مختلطة مذكورة؛ فقد زوّج هاميلكار Hamilcar إحدى بناته لنارفاس Naravas أثناء حرب المرتزقة كسباً لولائه وعرفاناً بجميله، كما زوّج أخو حنبعل Hanibaal ابنته لأوزالغن Oznagn عم ماسينيسا (غابرييل كامبس، 2014، ص191)، وتزوج الملك الماسيسيلي سيفاكس من الأميرة القرطاجية صفونزية (Titius Livius, XXVIII, 17-18)، إلى جانب زيجات أخرى سكنت عنها المصادر. ولا يعني هذا أن المغرب القديم صار بونيقياً، فقد كان البونيقيون قليلي العدد لا يتجاوز حضورهم قرطاج وضواحيها.

الإغريق: استوطن هذا الشعب شمال إفريقيا في جماعة قليلة قدمت من ثيرا Thyre يبلغ عددها نحو 200 بحار، وذلك منتصف القرن السابع ق.م، وسكنوا إلى جانب القبائل الليبية، وشاركوا في تأسيس قورينا Cyrène سنة 631 ق.م بقيادة باتوس Battos (فرنسوا شامو، 1990، ص71). غير أنهم لم يتمكنوا من توسيع نفوذهم، بسبب رفض الأهالي لهم ومنع قرطاج إياهم من النمو داخل مجال سيطرتها، رغم محاولاتهم المتعددة، خاصة محاولة الأيونيين في القرن السادس ق.م. ويذكر هيرودوت (Hérodote, V, 42) مقاومتهم للأسبرطي داريوس Darius الذي قدم محاولاً تأسيس مدينة في لبدّة. ومع ذلك لم يمنع هذا وجودهم جاليات في قرطاج (Stephane Gsell, 1920, p175) يعود إلى ما قبل القرن الرابع ق.م (Diodore de Sicile, XIV, 77, 5)، ومعظمهم من التجار، وقد خضعت الأقليات الإغريقية لنظم قرطاج وسياستها، ودلّت الآثار على زيجات كثيرة بين الإغريقيات والقرطاجيين (Jehan Desanges, 2007, P168.)

وبعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م انفتحت الممالك الوطنية على العالم الإغريقي، وكان ملوك نوميديا قد اقتدوا بالثقافة الهلنستية قبل ذلك؛ فقد حاكى سيفاكس النموذج الهلنستي في بناء مملكته، إذ وضع الإكليل على رأسه ونقش صورته على العملة (Francois Decret et Mhamed Fantar, P84). واستمر الأمر عند ماسينيسا الذي ارتبط بعلاقات ودية مع العالم الإغريقي، فاستقبل في عاصمته كيرتا بين 160 و155 ق.م بطليموس الثامن Ptolémée VIII الملقب بإفرجير الثاني Evergère II ملك قورينا آنذاك، وأقام له احتفالات على النمط الإغريقي (Jehan Desanges, 1962, P173) وتجمع المصادر على أن هذا النهج استمر بعد وفاته عند أبنائه (Strabon, XVII, 3, 13. Tite Live, XXIV, 50. – Diodore de Sicile, XXXV, 35. – Salluste, I, 38, 6) فازدحمت قصورهم بالإغريق من معلمين وأطباء وموسيقيين ومعماريين.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ امتدت جذور الهلنستية إلى القرن الأول للميلاد، حين أسس يوبا الثاني عاصمة مملكته قيصرية، واستقطب إليها كثيراً من الإغريق، عبيداً ومعنوقين وحتى أسبائداً، ممن يشبعون نهمه إلى العلوم والثقافات. وتجاوز ابنه بطليموس ذلك إلى السماح لهم بمشاركته في الحكم وإبداء آرائهم والأخذ بها (Stephane Gsell, 1920, PP243-244).

السوريون: قصد السوريون المغرب القديم ومارسوا فيه مهناً عدة، منها التعليم والتربية، فكثروا في بلاط يوبا الثاني، وكان منهم الخطباء والفلاسفة والأطباء، كالطبيب أوفورب Euphorbe (Plinie l'Ancien, XIX, 38- XXV, 5) بيد أن الجيش والتجارة ظلا أحب المهنتين إليهم، فقد انتسبوا إلى فرق خاصة في الجيش الروماني تعرف بالهجانة (Albertini Eugène, 1934, P30)، وعبرت عنهم نقيشة على قبر أحد الجنود دُون عليها «التدمري» Palmir وكان أغلبهم ينتمي إلى الفرقة الأوغسطية الثالثة ويتمركز على تخوم الصحراء منذ القرن الثاني. وللجالية السورية أنشطة أخرى كالتجارة، إذ وُقِّرت لها أرض المغرب القديم فرصة مواتية لممارستها وتبادل البضائع بين الشعبين، وتشهد على ذلك الأسماء Onomastiques والبضائع التي وُجدت في ويلي Volubilis والجم Thysdrus (محمد البشير شنيقي، 2012، ص239).

ب. العناصر الغربية

الإيطاليون Italiotes: وقد هذا العنصر بكثرة إلى شمال إفريقيا من تجار ومزارعين ومحاربين مباشرة بعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م، واستقر على أراضيها، وما تزال معالم الرخاء التي خلفها قائمة. وجاءت أولى الدفعات نحو سنة 122 ق.م، وقُدِّر عددها بنحو ستة آلاف (Pline l'Ancien, XV, 76 - XVII, 22)، على أن يحصل كل فرد على 225 هكتارًا من الأراضي الصالحة للزراعة (شافية شارن، 2007، ص102). ويقودنا هذا إلى التشكيك في صحة الرواية التي تشيعها المصادر عن إحراق قرطاج، لسببين: أولهما إغراء هذه الجالية بما توفره المدينة من مرافق الترفيه والرفاهية، وثانيهما الوعد بأراضي زراعية خصبة لا توفرها تربة محروقة.

وإلى جانب ذلك ذكر سالوستيوس جالية رومانية مقيمة في المدن النوميديّة انحازت إلى مساندة أذرّبل Adherbal بعد أن قضى يوغرطة على أخيه هيمبسال Hiempsal، فكافأها الإدارة الرومانية، مع الجنود المشاركين في تلك الحرب، بأراضي خصبة صالحة للزراعة في نوميديا (Salluste, XXI). وتزايد عدد هذه الجالية تدريجيًا بفعل هجرات متتالية، وانتشر أفرادها في المدن الكبرى بعد أن تمركزوا في المدن البونيقية التي تتوفر على مرافق الراحة والرفاهية (محمد البشير شنيقي، 2012، ص23)، حتى بلغ عددهم نحو 40 ألف إيطالي حين شجعهم قيصر بعد انتصاره سنة 46 ق.م وفتح لهم باب الاستيطان، فأسسوا مستوطنة ستينانوروم Settianorum Cirta غرب كيرتا، وهم المرتقة الذين شاركوا في صفه في حربه ضد بومبيوس، يضاف إليهم جنوده المسرّحون من الجيش (Julle César, LIV, 5)

وكانت إفريقيا الوجهة كلما حلت بروما أزمة أو حرب، فشجعت سكانها على الانتقال إلى الضفة الجنوبية للمتوسط مقابل إغراءات مادية لا حصر لها، حتى إنها لم تكن تتقصى أخلاقيات هؤلاء المهاجرين الذين كان أغلبهم من المعوزين وغير المنتظمين في مجتمعهم. وقد اعتمدت روما هذا الحل في القرن الأول حين اجتاحت إيطاليا أزمة اقتصادية، فشجعت الهجرة إلى إفريقيا مقابل أراضي زراعية خصصت لها ما يزيد على 150 ألف هكتار (Salama Pierre, 2000, PP1956-1957)

الإيبيريون Iberus مزيج من الإسبان والبرتغاليين، خالطوا الجالية الإيطالية، وكانوا ضمن فرق جيش يوبا الأول في حرب الأهالي الرومان حين انحاز إلى بومبيوس، وإثر هزيمته تقاسمت هذه الجالية مستوطنة ستينانوروم مع الإيطاليين (محمد البشير شنيقي، 2003، ص77).

الغاليلون Gaulois: قدموا من أراضي المدن الرومانية، وتزايد عددهم من سنة إلى أخرى، وكانوا من أبناء الجنود في الفيالق (Stéphane Gsell, 1900, P28)، الذين أسسوا أسرًا وأذن لهم بالزواج. وتعبّر عنهم 13 نقيشة لاتينية تعود إلى جنود الفرقة الأغسطية الثالثة، Stéphane Gsell, 1896, P157)، من خلال ما ورد فيها من كفى أسر غالية عُثر عليها بين حيدرة Ammaedara وتبسة (Jacques Gasco, 1969, PP540-)

وقد أفضت هذه السياسة إلى وجود فئة أجنبية كبيرة تنوعت بين فلاحين وجنود مسرّحين وقلّة من التجار. والجدير بالذكر أن أغلب هذه الفئة كان من المهتمّشين وقطاع الطرق، ومع ذلك تمتعت بصلاحيات واسعة وعاشت متفوقة على الإنسان المغربي في أرضه.

IV. الخلاصة:

تبرهن الأدلة الأثرية القديمة أن شمال إفريقيا كان مأهولًا بالسكان منذ العصور التاريخية السابقة للتدوين من خلال اكتشاف اللقى والجماجم إلا أن الأهم هو ذلك المدون منذ فجر التاريخ خاصة في المصادر المصرية التي بينت من خلال معالمها وجود قبائل كبرى مثل التحنو والتمحو أبرز

المجموعات القبلية في شمال إفريقيا القديم، خاصة في سياق العلاقات والصراعات مع مصر، وقبائل صغرى تمثلت في المشوش والليبو وظهرتها بوصف جماعات ليبية فاعلة، أسهمت تحركاتها في التأثير على العلاقات السياسية والسكانية بين ليبيا ومصر.

القبائل بين القرنين 15 و13 ق.م عرفت هذه الفترة تعددًا قبليًا وتحركات سكانية متزايدة، توافقت مع احتكاكات وصراعات، مما يعكس ديناميكية المجتمع القبلي في المنطقة وبوادر الانتقال من القبيلة إلى المدينة مع ظهور ممالك بدائية تحتوي على أغلب أركان الحكم الذي تنوع بين القبيلة والملكية.

الخريطة السكانية بعد القرن الخامس ق.م أصبحت أكثر تنوعًا من الناحية السكانية نتيجة تفاعل السكان الأصليين مع الجماعات الوافدة، خاصة الفينيقيين ثم الإغريق والرومان وأدت الهجرات والاستقرار والحروب والتجارة والتوسع السياسي إلى إعادة توزيع السكان وظهور مراكز حضرية، مما مهد للانتقال التدريجي من التنظيم القبلي إلى المجتمع الحضري.

V. الإحالات والمراجع:

- هيرودوت، أحاديث هيرودوت عن الليبيين، تر: مصطفى أعشي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص13.
- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1990، ص ص 69-76.
- أم الخير العقون، صور من حياة المجتمع الليبي القديم من خلال الآثار المصرية، مجلة العلوم الانسانية، العدد 2، ص24.
- جيمس هنري بريستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تر: حسن كمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص357.
- فرجيليوس، الإنيادة(الكتاب 4، البيت200)، ج1، تر: كمال حمدي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص208-209.
- محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج، منشورات ألبف، تونس، 1999، ص108.
- غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص129.
- العربي عقون، المؤرخون القدماء؛ غايوس كريسبوس سالوستيوس (86-35 ق.م.) وكتابه حرب يوغرطة، دار الهدى، الجزائر، 2006.
- شارل اندري جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ص170.
- محمد البشير شنيقي، نوميديا وروما الأمبراطورية تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012، ص239.
- شافية شارن، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر، 2007، ص102.
- محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة، الجزائر، 2003، ص77.
- العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص159.
- محمد محي الدين المشرفي، إفريقيا الشمالية في العصر القديم، ط2، شركة دار الكتاب، المغرب، 1957، ص36.
- فرنسوا شامو، في تاريخ ليبيا القديم الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ، تر: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، 1990، ص71.

- Hérodote, Histoire d'Hérodote, IV, 191.
- Cauvet (G), Que sont devenus les Libyennes des anciens ? Rev Afr, Vol 79, 1er partis, Paris, 1936, P387.
- Strabon – Géographie, XVII, 3.
- Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, III, 49.
- Pline l'Ancien, Histoire naturelle, V, 1-8.
- Stéphane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T1, Hachette, Paris, 1920, P344.
- Stéphane Gsell, Hérodote, Textes relatifs à L'Afrique du nord, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1915, P154.
- Justin, Histoire universelle, XVIII, 6.
- Jehan Désanges, Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, Publication d'histoire, Dakar, 1962, P111.
- Jacques Gascou, Le cognomen Gaetulus, Gaetulicus en Afrique Romaine, In: Mélanges d'archéologie et d'histoire, T82, n°2, 1970, P723-736.
- Louis Lacrois, Histoire de la Numidie et des Mauritanies des origines des origines jusqu'à l'invasion vandale, Alger livre, Alger, 2008, P135.
- Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XIII, 80, 3.
- Jehan Désanges, Op-cit, PP47, 28, 67.
- François Décret et M'hamed Fantar, L'Afrique du Nord dans l'Antiquité; Histoire et civilisation (des origines au Ve siècle), Bibliothèque historique Payot, Paris, 1981, P91.
- Camps Gabriel, L'inscription de Beja et le problème des Dii Mauri, Raf, 1954, PP253-254.
- Jehan Desanges, Aspects de l'hellénisme dans l'Afrique du Nord antique. In: La Méditerranée d'une rive à l'autre: culture classique et cultures périphériques. Actes du 17ème colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 20 et 21 octobre 2006. Paris: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2007, P168.
- François Décret et M'hamed Fantar, L'Afrique du Nord dans l'antiquité, P84.
- Albertini Eugène, A propos des Numeri Syriens de Numidie, Rev Afr, 75, 1934, P30.
- Jules César, La guerre d'Afrique, LIV, 5.
- Salama Pierre, La chasse au trésor dans le Maghreb classique, Africa Romana XIV, Vol3, Rome, 2000, PP1956-1957.

- Stéphane Gsell, L'algérie Dans L'antiouité, Giralt, Alger, 1900, P28.
- Stéphane Gsell, Inscriptions inédite de l'Algérie, Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, 1896, P157.
- Jacques Gascou, Inscriptions de Tébessa, M.E.F.R, Vol 81, n° 2, 1969, PP540-541.

* عائشة سعدان.